الفصل التاسع

تنظيم الجغرافيا الاقتصادية

تنظيم الجغرافيا الاقتصادية في الاتحاد السوفييتي وباقي البلدان الاشتراكية

توطئة تربوية

الواقع أن الجغرافيا الاقتصادية كانت مجهولة عملياً من الجماهير الشعبية في روسيا ما قبل الثورة الاشتراكية . وقد كانت علماً لا يدرس في المدارس وممثلة بنفر ضئيل من العلماء . كما كانت آنذاك علماً وصفياً مليئاً بالأخطاء المنهجية في تفسير مسائل التطور الاقتصادي وتوزع قوى الانتاج . أما بعد أوكتوبر ١٩١٧ فقد اكتسبت أهمية جديدة كل الجدة ، إذ أصبح لها الطابع الخلّاق المغيّر البنّاء . وكان للينين ورفاقه في النضال أمثال كرجيجا نوفسكي وكالينين وغيرهما دور كبير فعّال في ذلك . كما كان أ. الكسندروف (A.Alexandrove) ون. بارانسكي (N. Baranski) ون. كالاسوفسكي (N. Kolossovski) وكثير غيرهم ممن تعرفنا عليهم من العلماء السوفييت فيما سلف من الفصول ، كان لهم دور هام في تطوير هذا العلم : الجغرافيا الاقتصادية .

كما لا بد من الإشارة هنا وبهذه المناسبة الى مفاهيم الجغرافيا الاقتصادية الجديدة ، التي تضمنتها خطة « غويلرو » وأعمال التوزيع الأقليمي للاقتصاد في روسيا السوفيتات في أوائل العشرينات ، والتي كان لها كبير الأثر في علم الجغرافيا الاقتصادية وتطبيقها وتدريسها ، وبشكل خاص في المدارس العليا .

فمن الطبيعي وبديهيات الأمور أن تصبح الأطروحات الأساسية للجغرافيا الاقتصادية ، في الظروف الاجتماعية الجديدة ، في متناول الملايين من الناس كيما تتحول الى إحدى أهم الوسائل العملية . وفي هذا المعنى كانت مقارنة لينين للموضوع عندما رأى في خطة « غويلرو » الأطر الرئيسية للجغرافيا الاقتصادية الجديدة »[1] واقترح ، في الخامس من آذار ١٩٢١ على المدارس العليا تدريس « خطة كهربة

(١) Saouchkine, Geog. Ec. p. 86

روسيا » وأسسها الاقتصادية وفي الوقت نفسه تدريس « الجغرافيا الاقتصادية لروسيا » .

هذا كما تنبغي الإشارة الى أن ن. بارانسكي الآنف الذكر ، والذي يعتبر أباً للجغرافيا الاقتصادية السوفييتية ، رأى في هذا العلم عاملاً فعالاً في التربية والتعليم ، ورفع مستوى رفاه الشعب . وبناء عليه وضع مؤلفه : « الجغرافيا الاقتصادية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ـ نظرة في أقاليم « الفوسيلان » » .

كما أنه في السادس عشر من أيار ١٩٣٤ وافقت اللجنة المركزية للحزب وكذلك الحكومة السوفييتية على مادة قرار حول « تعليم الجغرافيا في المدارس الابتدائية والثانوية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية » وحيث ورد ما معناه أن تدريس الجغرافيا كان يحمل أخطاءً فادحة منها التجريد وجفاف العرض وعدم الكفاية في مواد الجغرافيا الطبيعية وضعف الاتجاه نحو الخرائط وتخمة الكتب في الموضوع بالمعطيات الاحصائية الاقتصادية والمخططات العامة ، بحيث أن التلاميذ كانوا يتخرجون من المدرسة وهم مفتقرون الى المعارف الجغرافية الأولية . وبناء على القرار الجديد توجب التمهيد ، لدراسة الجغرافيا الاقتصادية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ، بعرض لتوزع قوى الانتاج فيها واستعراض لوضعية الاقتصاد الوطني أيضاً ، كيما تعطى فيما بعد الخاصية الجيو ـ اقتصادية المفصلة لكل اقليم على حدة .

هذا ولتنفيذ مقرّرات الحزب والحكومة بالنسبة لتعليم الجغرافيا كان من الضروري خلق شبكة واسعة من معاهد الجغرافيا فيها كراسي للجغرافيا الاقتصادية ، وفي الوقت نفسه تطوير مدرسة الجغرافيا الاقتصادية السوفييتية ، وإعداد الاختصاصين في الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا الاقتصادية في الجامعات وتهيئة أساتذة جغرافيا من نوع جديد في مدارس وكليات التربية في البلاد. وقد أخذ بارانسكي على عاتقه بعضاً من هذا الأمر . فهو باختصار خالق المدرسة السوفييتية للجيو ـ اقتصاديين في الأدبيات السوفييتية والعالمية ، وفي الوقت نفسه مدرسة بارانسكي ـ كالاسوفسكي .

وانطلاقاً من رؤياه الواسعة الديالكتيكية بالنسبة لمدرسة الجيو ـ اقتصاد وتهيئة الاختصاصين الجامعين في الموضوع ، أدخل بارانسكي الجغرافيا الاقتصادية في حقل دورة العلوم الجغرافية رابطاً اياها بمتانة بعلم الخرائط والجغرافيا الطبيعية وتفرعاتها فيما بعد . وقد عمل على انعكاس هذا التدبير الأكاديمي في التنظيم الإداري التربوي لمعهد الجغرافيا في جامعة موسكو . وهذا يفسر الاهتمام الذي أعاره بارانسكي ومساعدوه وطلابه لقضايا الجغرافيا العامة ودراسة الدول وعلم الخرائط وبشكل خاص الخرائط الاقتصادية . وفي هذا الميدان الأخير وضع بارانسكي العديد من الأعمال النظرية الأساسية وألف الكتب كما وضع الأطالس ومجموعات الخرائط ، مرسياً في كل ذلك

التقدير الاقتصادي للظروف الجيو ـ فيزيائية والخيرات الطبيعية .

تنظيم الجغرافيا الاقتصادية في الاتحاد السوفييتي

تتطوّر الجغرافية الاقتصادية في الاتحاد السوفييتي في مختلف المؤسسات . فظروف واحتياجات إدارة الاقتصاد الوطني ، وبشكل خاص ضرورات التخطيط تلبي مباشرة من قبل حلقات الجغرافيا الاقتصادية أو مجموعات الجغرافيين الاقتصاديين العاملين في مؤسسات الجمهوريات أو المؤسسات المركزية ، كمؤسسة التخطيط المركزي ومجلس دراسة قوى الانتاج ومجالس الاقتصاد الوطني الخ . . . ومجموعة كبيرة من الجغرافيين الاقتصاديين يعملون في مؤسسات المشاريع والمؤسسات العلمية القيادية ذات الصفة القطاعية ، ودورهم هام ومتشابك ، حيث العمل بحد ذاته له صفة مجمعية ، كمشاريع العمل في الطاقة أو بناء المدن أو التخطيط الاقليمي . والمؤسسة الأكاديمية الرئيسية التي تقوم بالدراسة العلمية النظرية لمسائل الجغرافية الاقتصادية هي معهد الجغرافية لدى أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي ، ويليها العديد من الفروع المماثلة لها وغيرها في الميدانين النظري والعملي وعلى المستويين الاقليمي والمركزي (٣٨) . وهناك أيضاً أعمال مؤتمرات واجتماعات الجمعيات الجغرافية التي أسهمت في تطوّر وتقدّم هذا العلم، الى جانب المؤتمرات الأصغر الاقليمية وغيرها ذات المواضيع المعيّنة (٣٩) . فعلى سبيل المثال نذكر بعض الشيء عن المؤتمر الرابع للجمعية الجغرافية في الاتحاد السوفييتي الذي عقد في سنة ١٩٦٤ .

ففي المؤتمر المذكور اتّخذ العديد من المقررات حول خطط المشاريع الاقليمية للمستقبل وأسسها الاقتصادية العلمية وحول تخصص الأقاليم بغية الاستعمال الأمثل للموارد الطبيعية وحول القضايا النظرية للجغرافية الاقتصادية في العالم الاشتراكي وقسمة العمل الدولية فيما بين البلدان الاشتراكية وغيرها . بالاضافة الى ذلك اتخذت قرارات حول لفت النظر الى ضرورة الدراسة المعمقة لجغرافية البلدان الرأسمالية وكذلك البلدان النامية وكذلك جغرافية قطاعات الاقتصاد العالمي ، وأيضاً وهو أهم ، دراسة الأسس العلمية المتعلقة بأعلى مردود للمساعدة الاقتصادية التي يقدمها الاتحاد السوفييتي للبلدان النامية وأخيراً ضرورة التوسع في الدراسات الاقتصادية النظرية للمفاهيم البورجوازية في الجغرافية الاقتصادية .

هذا وتدرس الجغرافية الاقتصادية كمادة بحد ذاتها في مختلف المعاهد : في معاهد الجغرافية العائدة للجامعات ومعاهد التربية والكثير من معاهد الاقتصاد . كما تدرس الجغرافية الاقتصادية للبلدان المختلفة والقطاعات المختلفة في مختلف المعاهد وحتى في المدارس الثانوية والابتدائية .

وللجغرافيا الاقتصادية في الاتحاد السوفييتي ، في واقع الحال ، مهمة تربوية

تتجسد في الاسهام المباشر بنشر الأفكار الاشتراكية والشيوعية في العالم والقضاء على بقايا الماضي في البلاد وتنشئة الشعب ، وبشكل خاص الشباب والطلاب فيه ، بروح المواطنية السوفييتية والأممية البروليتارية .

تنظيم الجغرافيا الاقتصادية في البلدان الاشتراكية

أما في باقي البلدان الاشتراكية فمتطلبات تخطيط الاقتصاد الوطني ورفع مستوى اهتمام الجماهير الشعبية لمعرفة اقتصاديات بلدانها واقتصاديات البلدان الأخرى ، كل ذلك أدّى الى التطوير الهام والملموس للجغرافية الاقتصادية . وفي هذه البلدان الاشتراكية أصبح للجغرافية الاقتصادية أساس علمي نظري حقيقي ، كشكل من أشكال تطبيق المنهجية الماركسية ـ اللينينية . وبالإضافة الى ذلك نمت وتطوّرت تطوّراً كبيراً علاقات الجغرافية الاقتصادية بالتطبيق العملي . وفي كل البلدان الاشتراكية توجد أعمال في الاقتصاد الاقليمي ، تنفّذ بالاشتراك مع مؤسسات التخطيط وأيضاً الأبحاث المجمعية للأقاليم الاقتصادية أو الوحدات الاقتصادية والمراكز والمدن وغيرها من مؤسسات الأبحاث المرتبطة بتطبيق مهمات تخطيط الاقتصاد الوطني . ومع ذلك فهناك أبحاث تجري في المجال النظري من الجغرافية الاقتصادية .

وأهم مراكز أبحاث الجغرافية الاقتصادية في البلدان الاشتراكية هي معاهد الاقتصاد والجغرافية لدى أكاديميات العلوم ومؤسسات البحث العلمي لدى مراكز التخطيط وكراسي الجغرافية الاقتصادية في الجامعات والمعاهد الاقتصادية وغيرها . وقد صدر العديد من الدراسات في هذه البلدان الاشتراكية (هنغاريا ، رومانيا ، بلغاريا ، ألمانيا الديمقراطية ، تشيكوسلوفاكيا وغيرها) تتناول الجغرافية الاقتصادية ومونوغرافيات بلدانها في الموضوع . وهناك تعاون وثيق بين الاتحاد السوفيتي وباقي البلدان الاشتراكية لوضع النظرية المنهجية ووسائل الجغرافية الاقتصادية الاشتراكية الشاملة لمجموع البلدان الاشتراكية .

تنظيم الجغرافيا الاقتصادية في بلدان العالم الرأسمالي

اللوحة هنا مبعثرة للغاية . ففي بعض البلدان فإن الجغرافية الاقتصادية بالأفضلية علم جامعي . إنما بالإضافة الى ذلك تكون نشاطات الجغرافية في بعض الأحيان قوية للغاية في مختلف الجمعيات التي تعطيها مركز الصدارة . وتموّل عادة مواضيع البحث إما من أوساط مختلف الصناديق أو مباشرة من الاحتكارات الرأسمالية ، التي توجه الجغرافية الإقتصادية وأبحاثها أكثر ما يكون لدراسة الأسواق وتأمين التوزيع الأربح للمصانع الخ . . . . وغالباً ما تحظى بالمساعدة الخاصة أعمال الجيوبوليتكا الداعية للتمييز العنصري والملتوسية وغيرها . وفي الكثير من البلدان الرأسمالية يعمل الجغرافيون الإقتصاديون في مختلف المؤسسات الحربية والإحصائية وغيرها وأيضاً في البلديات والشركات الخاصة .

والأوساط الحاكمة في البلدان الرأسمالية تسعى لأن تستعمل قوة الجغرافية الإقتصادية في مختلف لجان التخطيط الاقليمي الخ . . إنما عدم إمكانية تأمين التخطيط الصحيح والأصيل ولدرجة ملحوظة في البلدان الرأسمالية ، كل ذلك ينقص من قيمة اعمال هؤلاء الجغرافيين .

على أن للجغرافية الاقتصادية آفاقاً أفضل بكثير في البلدان التي حصلت مؤخراً على الاستقلال السياسي وولجت مرحلة التطور الاقتصادي المستقل . فهذه البلدان بحاجة الى أبحاث الجغرافية الاقتصادية لتوزع الانتاج واكتشاف أفضل الطرق لتطوّر وتوزع اقتصاد البلاد في المستقبل وللمشاركة في قسمة العمل الدولية.فهنا نلاحظ أن جذب الجغرافيين الاقتصاديين للعمل في التخطيط يستند الى أسس أقوى بكثير منها في البلدان الرأسمالية .